ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الأمير عبد القادر ومشروع الدولة الوطنية
قراءة حضارية

عبد الرحمان كريب
أستاذ مساعد في قسم التاريخ وعلم الآثار
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

في إعادة بنائه للدولة الوطنية الجزائرية يستلهم الأمير عبد القادر الجزائري معالم تجربة الدولة الإسلامية الأولى في أسسها ومبادئها. ورغم التباين في الظروف والإكراهات المحلية والإقليمية، فإن الرؤية الحضارية لآليات البناء والمنهج تتيح لنا النظر إلى المشروع الأميري من زاوية أشمل وأعمق ترقى به إلى مصاف الحركات التغييرية على خط الدولة في طريق النهضة الحضارية الإسلامية. وهو بذلك حاول بكل قواه أن يقحم الشعب الجزائري في دورة جديدة من أدوار الحضارة ويهيئ له شروط الدخول إلى حلبة التاريخ. تتجاوز هذه المقالة الأسلوب السردي لحياة الأمير وشخصيته لتقدم قراءة حضارية -أي من ناحية السنن والقوانين التي تحكم اطراد الحضارات-ورصدًا عميقًا لحركة البناء التي شرع فيها ووضع لها إطارها العام وحدد تقاسيمها ولبناتها وفق تصور شامل وخلفية أيديولوجية إسلامية. وتؤكد أن معاني الدولة الوطنية موجودة بالقوة وبالفعل في حركة الأمير وفكرة، وتشير إلى التهافت المفاهيمي حول الوطنية التي لم تتبلور كمذهب سياسي إلا في أواخر القرن التاسع عشر، ولذلك تجزم أن الدراسة الموضوعية لمقاومة الأمير لا تهتدي إلى نتائج ذات قيمة علمية إلا إذا راعت لغة العصر وروحه. وبعد هذا المدخل المنهجي تنتقل المقالة إلى تحديد موقفه من الخلافة الإسلامية القائمة، ثم تبين مجال عمل الأمير الأساسي وهو الشعب الجزائري الذي كان يعاني من التمزق والتشرذم، والذي يُعَدّ في نظره القوة الوحيدة القادرة التي كان يراهن عليها للوقوف في وجه المد الاستعماري الفرنسي، ولكن لن يتم ذلك إلا بعد أن ينقله من التجزؤ الى الوحدة، وينشىء له دولة ذات مؤسسات وتشريع في مواجهة القبيلة والتقاليد والأعراف، ويسعى لأن يرتقي به إلى المجتمع التاريخي الذي يرى النور تلبية للفكرة الدينية - الوطنية ويشكل سكانه نسيجًا اجتماعيًا متماسكًا، وتوحيده حول أهداف وطنية واحدة، وقد جعل من الجهاد والغيرة على الدين والبيعة وقيم العدل والمساواة أعمدة لبناء ما يصبو إليه.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٣	ديسمبر	٢٠١٤
تاريخ قبول النشر:	٠٨	أبريل	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
الأمير عبد القادر، الدولة الوطنية، الجهاد، الفكرة الدينية، الدورة الحضارية

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041866

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد الرحمان كريب. "الأمير عبد القادر ومشروع الدولة الوطنية: قراءة حضارية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٦٣- ٦٩.

مُقَدِّمَةٌ

يعتبر البحث في فكر الأمير عبد القادر حول الدولة ومشكلة الحكم موضوعًا قديمًا متجددًا تناولته الدراسات والأبحاث بالتحليل والبسط، فجاءت في بعض الأحيان مختلفة ومتناقضة، ورغم ذلك فإنها مازالت بعيدة عن الكلمة الأخيرة والقول الفصل حول القضية، بل إن بعضها يحتاج إلى عملية تقويم تعود بفكر الأمير وشخصيته وطبيعة مقاومته إلى إطارها الأصيل، وتحفظ لها بريقها وعبقريتها وانتماءها الحضاري. يُعالج هذ المقال إشكالية بناء الدولة الأميرية من منظور حضاري، وتبحث في الآليات التي وظفها الأمير في اعادة تركيب المجتمع، وبناء كيان الدولة الجزائرية من الخميرة المتوفرة لديه وهي الشعب، الذي ظل مغيبا عن الحكم عدة قرون، وتستحضر القيم والمفاهيم التي تشبع بها خطابه الديني والسياسي، وتجسد ت في سلوكه العملي

ومقاومته، وراهن عليها في خلق الروح الوطنية والتلاحم الشعبي والإحساس المشترك بوحدة المصير عند الجزائريين.

١- المشروع الحضاري للأمير (أزمة مفاهيمية)

من المسلم به أن العلوم الإنسانية عندنا تعاني معوقات عديدة على مستويات عدة، منها تلك الصعوبة التي تواجهها في تحديد مصطلحاتها عامة، وصياغتها وفق منظورنا الثقافي، فعلى مستوى المفاهيم يواجه الباحث العربي أزمة حادة، ويؤدي تعقد المصطلحات وتشعبها، إلى جدل أدبي يبتعد فيه كثيرا عن منطق العلم والحوار الجاد، مثل النقاش الذي أثير ويثار غالبا حول مصطلحات: الدولة، الأمة، الوطنية، الحضارة، في حين أن هذه المجادلات لا تجلي الموضوع ولا تفك رموزه، بل في الغالب تجعله أكثر صعوبة وتعقيدًا. والسبب أننا لم نؤسس جهازًا مفاهيميًا نابعًا من خصوصيتنا السوسيو- معرفية والحضارية وفي نفس الوقت كان اقتباسنا واستيعابنا للمفاهيم الغربية بعيدا عن الصدق والامانة وبدون نقد علمي.[١]

ولما ترك المجال فارغا للأخر، وأقصد به الفكر الكولونيالي أوصنيعته من المستلبين حضاريًا، وجدنا أطروحات عديدة تروج لفكرة انعدام الدولة في الجزائر[٢] وتقفز على واقع تاريخي لا يمكن تجاوزه، لأن الايديولوجية الاستعمارية، بكل بساطة، ترفض أي شكل من أشكال الأمة لا ينسجم في تنظيرها مع المفهوم الغربي للدولة، وبذلك فهي تمهد للمشروع الصهيوني الصليبي الاستكباري وتزكيه، وتصب في اتجاه تنمية ما يسميه فيلسوف الحضارة المفكر مالك بن نبي بمعامل القابلية للاستعمار[٣] عند الفرد المسلم، وفي هذا الإطار فان الحوارات التي كانت تتم حول دولة الأمير عبد القادر هي جزء من الحرب التي ظلت دائرة بين فرنسا والجزائر في أحقاب مختلفة وبصور وأشكال متنوعة[٤] ووظفت أكبر وسائل الصراع حول الهوية، والتوجهات الحضارية الكبرى للأمة.

إن الوطنية (Nationalisme) بوصفها تعبيرًا عن ارتباط عاطفي عميق بالأمة، لم تظهر في اللغات الأوروبية على سبيل الاستعارة الحرفية من اللغة الفرنسية إلا في أعقاب الثورة الفرنسية، فقد عبرت يومئذ عن مفهوم دولة الأمة في مقابل دولة الملك، ولم تتبلور كمذهب سياسي إلا في أواخر القرن التاسع عشر،[٥] ومن هنا يتضح لنا جليًا ذلك الغبن والتهافت الذي يقع فيه بعض كُتابنا المخلصين في بحثهم عما يدلل، على مستوى الخطاب والكلمات، عن البعد الوطني لمقاومة الأمير والمقاومات الشعبية الأخرى ضد الاستعمار الفرنسي بصفة عامة، رغم أن مقاومة الأمير تبقى تشكل خصوصية نوعية واضحة المعالم لاعتبارات استراتيجية، ولأهدافها الكبرى المبنية على مفاهيم تشكل الأسس الفكرية والسياسية لمشروع الدولة الوطنية[٦] فهذه المعاني موجودة بالقوة وبالفعل في حركة الأمير وفكره.

إن السرد التاريخي للأحداث وتجميع الوقائع رغم أهميته في أية دراسة من هذا النوع وهو ديدن الدراسات التقليدية عندنا، لا يقدم إجابات شافية حول المشروع الحضاري للأمير عبد القادر ولا يشفي غليل الباحث بتصور عميق لأبعاد مقاومته، ومن ثَمَّ لابد من معالجة القضية في اطار علم الاجتماع وعلم النفس معًا، وفلسفة التاريخ أي التفسير العقلي لهذه الوقائع وإيجاد منطق التاريخ في مجرى الأحداث، ورد جزئيات الأحداث الى كلياتها، كما فعل ابن خلدون وغيره، وعليه لا يمكن أن نتصور دولة الأمير إلا في إطار المعطيات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية للشعب الجزائري السائدة في تلك الحقبة التاريخية، ومعطيات الظروف السياسية المحلية والإقليمية والعالمية، بجميع اكراهاتها وتحولاتها، في سياق حضاري شامل لأن مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته[٧] وأعتقد أن شخصية الأمير الكاريزمية، تسمح لنا بهذه القراءة الحضارية الاستراتيجية، فهو العالم الفقيه والقائد العسكري المحنك، والصوفي الملهم، والمفكر الفيلسوف، والمصلح الاجتماعي والمجدد أيضًا.

٢-بين الخلافة الإسلامية والدولة الوطنية

كانت الولاية الغربية وهران، تمثل مشكلة إدارية وسياسية في غاية التعقيد فالي جانب القبائل الكبيرة والقوية التي كانت تمارس نفوذا في عهد الأتراك والحاميات التركية الباقية في بعض المدن مثل معسكر، والكراغلة في تلمسان، كانت الولاية عرضة لتيارات الأطماع السياسية التي تحوم بها من كل جانب[٨] فالأتراك رموز الخلافة، وحماة ديار الإسلام، مع مرور أكثر من ثلاثة قرون لم يعودوا يحملون الهم والمحرك نفسه المتمثل في الوازع الديني، وانقلب الولاء الديني- السياسي إلى معارضة سياسية غير دينية[٩] وبعد أن تحولوا الى قوة قمعية ضد الجزائريين اشتد العداء والكراهية بين حلفاء الماضي وشركاء الجهاد ضد الصليبية الغربية وظهر ذلك جليًا في انتفاضات وحروب ضد السلطة التركية.[١٠]

ويكون الأمير قد حسم موقفه نهائيًا من بقايا الحكم التركي عندما رفض طلب باي وهران باللجوء والحماية، مذكرا عائلة محي الدين بما عاناه الشعب من المظالم والويلات التي انزلها بهم، أما اتجاه السلطان العثماني فقد شعر الأمير في النهاية، وبعد عدة مراسلات، أنه غير قادر على مساعدته، وأنى له ذلك وهو غير قادر على رد العدوان حتى على حدود إمبراطوريته. وعلى الجبهتين الغربية والشرقية تمكنت فرنسا من وضع حد للأطماع التونسية والمغربية في القطر الجزائري، بعد أن وضعت معاهدة طنجة الحبل حول عنق سلطان فاس. وهكذا وجد الجزائريون أنفسهم

وجها لوجه أمام الدخيل الفرنسي الذي أخذ في قضم أطراف البلاد الساحلية شيئًا فشيئًا، يواجهونه بقاعدة شعبية بسيطة، ينقصها التنظيم والتدريب ويسود صفوفها الانقسام بين القبائل والتنافس على الزعامة، وقد أدرك الأمير بنظره الثاقب وتحليله العميق أن هذه العوامل هي التي أضاعت على المقاومة الجزائرية فرصة طرد الغزاة ورميهم في البحر، وإقامة دولة وطنية محلية تحل محل الإدارة التركية المنهارة، وهذا الدور دور المنظم والموحد للصفوف هو الذي سيضطلع به الأمير. وهي مهمة تنوء بحملها الجبال الرواسي.؟ أما الخلافة الإسلامية التي لم يكن من الممكن في القرن التاسع عشر – قرن الاندفاع الاستعماري- تصور إطار سياسي قومي خارجها للشعوب الإسلامية[١١] فقد حرص الأمير على تأكيد روابطه وانتمائه للخلافة العثمانية سواء أثناء مقاومته أو حتي في هجرته.[١٢]

٣- البيعة:

(من الولاء للقبيلة إلى الولاء للوطن)

تتميز الدولة عند الأمير عبد القادر بكونها انبثقت عن إرادة شعبية وبيعة شرعية في عهد كانت فيه الدولة في العالم في العالم الاسلامي تعيش على الحكم الموروث والتقاليد [١٣] وفي فترة صعب تأليف مثل هذه الحكومات في المشرق والمغرب،[١٤] وقد شكلت القبيلة إلى حد ما، موطن الداء في المجتمع الجزائري كمؤسسة اجتماعية وسياسية تقف عائقًا أمام بلورة مشروع وطني يعتمد المركزية السياسية، فهي من خلال وظيفتها وهويتها تقف سدًا منيعًا أمام قيام وعي وطني فاعل وفعال،[١٥] فكان على الأمير تجاوز هذا العائق لتحقيق الاقلاع الحضاري، لأن النظام القبلي الذي كان يؤطر المقاومة قد أثبت عجزه في مقاومة الاستعمار اذ ظهرت المقاومة الشعبية محدودة الطاقات التعبوية[١٦] وهذه الرابطة القبلية التي وحدت بعض القوى المحلية في حركة المقاومة، ومكنته من القيام برواية حماسية وملاحم بطولية، لم تكن كافية لتأهيل شعب ليؤدي رسالة تاريخية، ومهمة حضارية[١٧] كان المجتمع الجزائري غنيا بأفكاره وأشخاصه وثرواته، ولكن شبكة علاقاته الاجتماعية قد تمزقت، ولذلك فان تأسيس هذه الروابط هو الانجاز التاريخي الأول الذي يجب أن يقوم به المجتمع ساعة ميلاده ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به الأمير عبد القادر هو ميثاق البيعة الذي يربط بين الامام ورعيته، فالمجتمع ليس مجرد كمية من الأفراد وانما هو اشتراك هؤلاء الافراد في اتجاه واحد من أجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية، وهي هنا في الحالة الاستعمارية الجزائرية تتمثل في تحقيق التحرر الوطني والاندماج الاجتماعي والسياسي، وهذا كما يقول مالك بن نبي يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة[١٨]

اقترح محي الدين على أهل غريس مبايعة ابنه الحاج عبد القادر فقبلوا بإمارته مسرورين وعقدوا له البيعة الأولى يوم (٠٣ رجب ١٢٤٨هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٨٣٢م) وذلك تحت شجرة الدردارة.

ونص البيعة كما ينقلها صاحب التحفة[١٩] موجه للعرب والبربر على حد سواء، وينص على أن الإمارة الإسلامية قد آل امرها الى عبد القادر بن محي الدين وبذلك صار متكفلاً بإقامة الحدود الشرعية لنفع العباد وعمران البلاد ورفع راية الجهاد، ويدعوهم الى تقديم الطاعة وأداء البيعة ونبذ الخلاف.[٢٠] فالبيعة الشرعية كعقد اجتماعي، لها قيمة سياسية عظمى، اذ جاءت لتقيم قاعدة الولاء السياسي وتؤصل للعلاقة بين الأمير والشعب الجزائري، وترسم معالم مرجعية سلطانية ذات ظلال راشدية، فقد حملت نصوص البيعة نفحات النبوة ومفردات العهد الأول الذي شهد تأسيس المجتمع المسلم المدني: الإمام، الكتاب والسنة، السمع والطاعة وامتثال الأوامر ولو على النفس والولد وحتى المكان تحت الشجرة يستدعي ذلك الجو الإيماني الأول في ظلال الآية الكريمة (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ).[21] لقد خاطبهم محى الدين قائلا إليكم سلطانكم الذي أشارت إليه نبوءات الأولياء والهامات الاتقياء، هذا هو ابن الزهراء فأطيعوه كما أطعتموني واجتنبوا جفاءه، نصر الله السلطان نصر عزيز مقتدر".[٢٢] وقد تمت مبايعته كسلطان لبناء دولة، لا كقائد حرب ومعارك فقط. وهكذا كانت الجماهير تعلن عن بداية إمارة إسلامية تقوم على الكتاب والسنة[٢٣] والمتدينون كانوا ميالين إلى منح تأييدهم القوى إلى رجل دعاهم للحرب من أجل العقيدة.[٢٤]

كان الأمير باعث الوطنية الجزائرية فقد وصل خطابه اعماق الشعب وهز صوته أركان الوطن فإذا بريح الوطنية تطوي المسافات وتجتاز الحدود القبلية والطرق الصوفية والاقليمية لتصبح شعلة واحدة تحرق وجه العدو الدخيل[٢٥] وكان هدفه الأسمى هو أن يجعل الجزائريين شعبًا واحدًا باستمالتهم إلى المبادئ الاسلامية واستدعائهم إلى فضائل أهل القرون الأولى للهجرة وإيقاظهم من الغفلة.[٢٦] لقد نجح الأمير في جعل الشعب يتجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الشعور بالوحدة الوطنية[٢٧] وعندما يرجع المرء إلى ظروف المبايعة يلاحظ أننا أمام بعث لتقليد كاد حكام المسلمين أن ينسوه وهو الخضوع لإرادة المحكومين ودعوتهم للتعبير عن اختيارهم بمحض الحرية ويعتبره البعض نموذجًا مأمولاً لتولي المسؤولية وممارسة السلطة في البلاد العربية ومرجعية تاريخية لتأسيس حكم وطني،[٢٨] ومن جهته يكون الأمير قد عبر عن التزامه الدستوري بقوله "أنني لن أعمل بقانون غير قانون القرآن ولن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن والقرآن وحده فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لنفذت فيه الحكم".[٢٩]

لقد توجه الأمير بخطابه إلى كل القبائل وكل الزوايا والطرق الصوفية دون استثناء وكل الجهات، فقد تجاوز خطابه حدود القبيلة والجهة إلى الشعب، إلى المواطنين حيثما كانوا ومهما كان انتماؤهم القبلي والصوفي أو الجهوي، وربما لم تعرف الجزائر قائدًا من أبنائها استعمل هذا الخطاب من قبل[٣٠] كان الأمير يتحرك كرجل دولة إسلامية وطنية لا كرجل طريقة أو جهة أو قبيلة،[٣١] فقد بذل جهوده في توحيد القبائل المتنافرة ليكون منهم دولة حديثة ودعا زعماء البلاد المعاصرين له إلى الوحدة الوطنية كان الهدف الأسمى والأشمل له جعل الجزائريين شعبًا واحدًا،[٣٢] وفي مواعظه كان الجميع يجددون يوميًا حرارة الغيرة الحربية والدينية التي كانت تتقد داخل صدورهم فكان عبد القادر بذلك كأنه منبع رئيسي من الضوء والحرارة لقومه[٣٣] إن الأمير إخطار نموذجًا جديدًا يواصل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في سطوعه الأول[٣٤] ذلك المجتمع التاريخي الذي يرى النور تلبية لفكرة، ويؤذن بميلاد فجر جديد.[35] وقد أدرك الاستعمار الفرنسي بحسه الحضاري والانثروبولوجي أنه أمام بعث جديد ودورة أخرى من أدوار الحضارة، ولذلك نجد أن أشرس المعارك التي قادها، كانت تدور حول منع الأمير من إكمال مشروعه السياسي، الهادف إلى دعم بنية الدولة الجزائرية، القائمة ترابًا وتاريخًا ومجتمعًا، بجهاز حكومي يعطيها قوة المناورة السياسية والمفاوضة الاستراتيجية إلى حين استعادة البلاد لسيادتها[٣٦] أي يحول دون أن تستكمل الجزائر بناءها المؤسساتي كدولة كاملة السيادة، وتحقيق وحدتها الاقليمية والسياسية، وأن يشكل سكانها نسيجًا اجتماعيًا متماسكًا ليدخل التاريخ من جديد.

٤- المساواة والعدل:

(تنمية الاحساس بالوطن)

أعلن نص البيعة على القطيعة مع أساليب الحكم السابقة، القائمة على الاستبداد المالي والسياسي، ولذلك كان أهم مبدا من مبادئ الدول الحديثة، تسلحت به دولة الأمير عبد القادر هو مبدأ المساواة، فالقضاة هم وحدهم الذين لهم حق إصدار الأحكام عكس ما كان عليه الامر عند الأتراك، والقاضي يحكم حتى في قضايا تهم الجيش، والسكان لهم الحق في التقاضي، ويتقدمون بشكواهم للأمير حتى ضد الآغا. إن سياسة المساواة التي تشبع بها الأمير كانت كفيلة بأن تحقق الشعور بالوحدة الوطنية، فقد كان حريصًا أشد الحرص على سير العدل وفقًا للشريعة الاسلامية، وعلى أن تكون جميع قوانين الدولة مستقاة من الكتاب والسنة، وعلى الطابع الديني التقليدي للمواسم، وكون رئيس الدولة من علماء الدين، وهذه الاعتبارات تجعل من دولة الأمير عبد القادر دولة إسلامية تذكرنا بعهود الخلفاء الراشدين في أزهى عصور الإسلام، ولكن الأمير الذي ولد في بيئة دينية محافظة، سرعان ما أدرك أن دوره بعد أن أمسك بزمام السلطة هو بناء دولة عصرية تقوم على جيش منظم وإدارة محكمة وعادلة[٣٧] بديلة لتلك المتهالكة، تؤطر التكوين الطبيعي لميلاد المجتمع الجديد.

أخذ الأمير يوسع من حدود دولته شيئًا فشيئًا، فقد منحته الظروف، كما منحتها للمسلمين من قبل أثر صلح الحديبية، فسحة للبناء الداخلي، ولعل أعظم الانجازات هي تلك التي تتحقق زمن السلم والاستقرار، ولذلك ود الأمير لو أنه كان لمدة أطول، فقد مكنته معاهدة "تافنة" من الهدوء الذي كان ضروريًا له لينظم جيشه، ويضع أسس دولته، ويقيم المصانع، ويبني مجتمعًا جديدًا،[٣٨] ولتعزيز قواته العسكرية وتنظيم دولته من خلال الإصلاحات الإدارية والتنظيمات العسكرية الآتية:

- قسمها إداريًا إلى ولايات وكل ولاية يديرها خليفة، وقسم الولاية إلى عدة دوائر ووضع على رأس كل دائرة قائدًا يدعى برتبة آغا، وتضم الدائرة عددًا من القبائل يحكمها قائد، ويتبع القائد مسؤول إداري يحمل لقب شيخ.
- أنشأ جهازًا قضائيًا يتسم بالدقة ويقوم على العدل وأعطى سلطة واضحة للقاضي الذي يمثل الشرعية وجعله يستمد نصوصه من القرآن، وبذلك انتعشت العاطفة الدينية لدى السكان، وشعر الجميع بالأمن والعدل والوحدة، وهذا الشعور هو القوة الحقيقية التي مكنته من الصمود أمام الترسانة العسكرية الفرنسية الحديثة مدة قياسية.
- اعتمد على الشورى المأثورة عن السلف الصالح، فقد كان يستفتي العلماء حتى من خارج الجزائر، وكان يجمع الناس ليسمع رأيهم في الأمور الخطيرة كالحرب والسلام والمصالحة، وأسس لذلك مجلسًا للشورى يتكون من أحد عشر عضوًا يمثلون مناطق مختلفة، ومجلسًا وزاريًا مصغرًا يضم: (رئيس الوزراء، نائب الرئيس، وزير الخارجية، وزير الخزينة الخاصة، ووزير الأوقاف) وهذا النظام الاداري التصاعدي الذي وضعه الأمير متجاوزًا النظام الإداري العثماني يبين مدى إدراكه لحاجة أفراد مجتمعه لنظام يرتقي بهم من عهد الاقطاع والقبيلة إلى عهد التعايش الاجتماعي والالتزام نحو بعضهم البعض ونحو الدولة.[٣٩]
- كما أنشأ جيشًا نظاميًا ودعم قوته العسكرية بإقامة ورشات للأسلحة والذخيرة وبناء الحصون على مشارف الصحراء، حتى يزيد من فاعلية جيشه، وطور التعليم، كما نظم الميزانية وفق مبدأ الزكاة، وفرض ضرائب إضافية لتغطية نفقات الجهاد، وتدعيم مدارس التعليم. وبهذا أسس الأمير للدولة الجزائرية الحديثة والعصرية، لتأطير القوى الوطنية في اتجاه الهدف الحضاري المنشود.

٥- الجهاد والوحدة الوطنية

كان هدف الأمير الأساسي إيقاظ وإذكاء الضمير الوطني بجعله الجهاد في سبيل الله وسيلة والوحدة الشعبية هدفًا[٤٠] ولهذا فان معنى الجهاد عنده لا يتوقف عند الدفاع المسلح عن قضية عادلة بل له فلسفته وأبعاده كباقي العبادات الأخرى[٤١] وفي مفهومه الديني للجهاد قد اتضح عنده الربط بين جهاده وجهاد الصحابة والخلفاء في سبيل الدعوة الاسلامية[٤٢] كان الأمير مؤمنا بان الدين هو العنصر الوحيد القادر على إعطاء الفعل والتصرف الانساني- كالمقاومة - أبعادها الحقيقية واتجاهاتها الصحيحة والمقبولة،[٤٣] وقد حدد القرآن الكريم والسنة المطهرة أهداف الجهاد بوضوح، فأولها استرداد الأرض السليبة وإرجاعها إلى أهلها لتعود دارًا للإسلام تمارس فيها الشعائر بكل حرية كما بين الله تعالى في سورة الحج: (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**)،[٤٤] فكان الجهاد واجب يؤكده عليه وعيه بدينه كما أن الأمير لم يكن غافلا عن رأي علماء الدين وأهميته في جهاده وقد راسل بعضهم يستشيرهم في أمور الناس والعلاقة مع العدو، كما راسلهم يطلب منهم دعوة الناس للجهاد واستخدام نفوذهم الروحي عند السكان من أجل مصلحة الدين والوطن.[٤٥] ويعتبر الجهاد بالنسبة للأمير الدافع الأول في مقاومته والوسيلة الفضلى لزرع الثقة في نفوس جنده، وواجبًا مقدسًا أمر الله به للدفاع عن النفس والأوطان،[٤٦] وكان يعرف جيدًا مدى نار التعصب التي تشتعل في صدر كل مسلم وكان يعرف أيضًا أن ما قد لا يحققه حب الوطن ستحققه بالتأكيد الغيرة على الدين لذلك قرر أن يجعل من هذا الشعور الأخير حجر الزاوية في الصرح الهائل الذي تجاسرت عبقريته هو وحده على تصوره.[٤٧] فعبد القادر تجسيد لمبدأ عاطفة دينية عظيمة وهي في الجزائر العاطفة السياسية الوحيدة التي وحدت السكان وقد تمثل هذا المبدأ في الجهاد،[٤٨] ويأخذ الجهاد أيضًا بعدًا دينيًا أصيلاً وهو الجهاد ضد الكفار وهوما يفرض بنفسه توسيع دائرته ليشمل كل المسلمين مهما كان انتماؤهم الجغرافي والقبلي.[٤٩]

كان الدين هو المركب (بكسر الكاف) الحضاري بين عناصر المعادلة، وأنه من المتفق عليه بين مؤرخي الحضارات، أن دورة الحضارة تبدأ حين تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، غير أن إنسان ما بعد الحضارة، لن يكون قادرًا على إنجاز عمل حضاري إلا إذا تغير جذريًا، ويجعل من إعادة البناء الحضاري أمرًا ممكن التحقيق. ومن عمق الحقيقة الدينية تلك المشاعر المتأججة حبًا في الأرض وحبًا في الوطن الجديد الذي رسم حدوده الأمير وجعل عليه قضاته وخلفاءه وممثليه واعترف له العدو بحدوده، جعلت الناس يضحون ويتبعون راية الأمير،[٥٠] ولذلك كانت أكثر الاحكام صرامة وردعية متى كان الذنب المرتكب في حق الوطن أو الدين، كقضايا التعاون مع العدو، والجوسسة، وخرق الحصار المضروب عليه. وقد كان المبدأ الذي يسير عليه متى اشكل عليه الأمر في قضية توقف عن إصدار الحكم وهو الفقيه العالم، وكاتب علماء فاس ومصر.

كان التجنيد يعتمد على تطوع الوطنيين، وكان المنادون يثيرون في النفوس الحمية والشهامة ونخوة الدفاع عن الإسلام وعن الأرض والعرض، ولذلك كان نمو عدد المقاتلين وزيادته مطردًا لأن الحماس الشعبي للجهاد كان عظيمًا،[٥١] ولعل من أهم الميزات الخاصة بالأمير أنه المقاوم الوحيد منذ الاحتلال حتى عام ١٩٥٤ الذي ربط الجهاد وتحرير الأرض بمبدأين ضحى في سبيلهما حتى النهاية وهما وحدة التراب الوطني والسيادة الوطنية،[٥٢] كان هدفه الأسمى إعادة الأمة المجاهدة المحاربة للوجود والمعتمدة على الجيش النظامي لا الجيش المرتزق الذي كان سائدًا في عصره،[٥٣] ودمج المجتمع الجزائري وتوحيده حول أهداف وطنية واحدة، وصار بذلك الأمير عَلَمًا على دولة ناشئة لها امتداد حضاري أساسه الدين الاسلامي في شموليته ومعاينة السامية التي توحد الشعب الجزائري وتصهره في بوتقة واحدة. إنه ليس من الغريب بعد كل الذي ذكرناه أن نجد كل قوى الشر تتحالف ضد الأمير ومشروعه الحضاري، فقد حاربت هذه الدولة الوليدة كما يقول أبو القاسم سعد الله "رحمه الله" جيوش فرنسا والمعمرون، وسلاطين المسلمين وعلماؤهم النائمون، كما حاربتها ظاهرًا وباطنًا الكنيسة والماسونية الصهيونية باعتبارها حركة جهاد إسلامي متوثب فيه انتعاش ونهضة للإسلام الراكد إذا انتصرت.[٥٤]

خَاتِمَةٌ

تخلص الدراسة إلى نتائج هامة، منها؛ أن الدين والوطنية في فكر الأمير وحركته هما وجهان لعملة واحدة، وأن محاولة الفصل بين المفهومين عند بعض الباحثين مرجعه القصور الحاصل في استيعاب نظرة الإسلام الشاملة للحياة كما كان الأمير يدركها كقوة مؤطرة لحركة المقاومة الوطنية الجزائرية، وهذه المعضلة المنهجية هي التي حالت دون كثير من المحاولات والولوج إلى أغوار هذه الشخصية العميقة وفك رموزها، وهي التي حملت هم الوطن الجزائري ردحًا طويلاً من الزمن. ومنها أن ميثاق البيعة كعقد شرعي والذي ربط بين الأمير والشعب الجزائري هو النواة التي سعى حولها أن يعيد نسج الشبكة المهترئة للعلاقات الاجتماعية لهذا المجتمع، ويرمم ما تمزق منها طوال قرون التخلف والانزواء على أطراف التاريخ وهوامشه، وكان الجهاد في أسمى معانيه أداة لصهر المجتمع في كيان واحد، وشحذ فعاليته التحررية وتفجير طاقاته الحضارية في بناء الدولة.

وضع الأمير الولاء للدولة في مواجهة الرابطة القبيلة لأن هذه حالت دون أن ينجز المجتمع الجزائري رسالته التاريخية في تحقيق الانعتاق من الاستعمار وبدء اقلاعه الحضاري، فقد كان الأمير يقاتل بتركيبة قبلية ظلت تحكمها العصبية، وقد حالت فرنسا بكل ما أوتيت من قوة ومكر وديبلوماسية دون أن يأخذ مشروع الأمير مداه الأقصى حين تمكنت من محاصرته عسكريًا واقتصاديًا، ولكن أعتقد أيضًا أن الأسباب الجوهرية لتوقف حركة الأمير هي النتائج المحققة نسبيًا على المستوى الاجتماعي، فقد أفشلت النعرات القبلية الانصهار الكلي للقبائل المكونة لجيشه في حركة تحررية واحدة وجعلت بعضها ينقلب عليه. وأخيرًا؛ إن التكالب الداخلي والخارجي الذي تعرضت له دولة الأمير ومشروعه ذي الأبعاد الحضارية الكبرى جعل أمدها قصيرًا، ولو طال العهد لازدهرت الدولة الوليدة وعرفت الجزائر ومعها بلاد المغرب وجهة حضارية أخرى.

الهَوامِشُ:

(١) حمزة بلحاج، **الأمير عبد القادر ومنهج التغيير ومنظومة القيم**، مجلة الثقافة، وزارة الاتصال والثقافة، العدد١١٤، ١٩٩٧، الجزائر، ص٢٩.

(٢) من أمثال أ.برنارد يقول: (يمكننا القول بدون مبالغة بأن الجزائر لم توجد قبل مجيء الفرنسيين ...لقد أسسناها من العدم وأعطيناها شخصيتها)، راجع:

A. BENARD- L'histoire de l'algerie-t2-del'histoire des colomnies-PLOM-1930. P33

(٣) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، ص١٥٢.

(٤) عبد الله شريط، **مع الفكر السياسي الحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص١٠٠.

(٥) علي بن محمد، **الوطنية كمفهوم وكمصطلح**، جريدة الشروق اليومي، ٢٠١١/١١/١٤، العدد ٣٤٧٣، ص١٥.

(٦) عمار يزلي، **الظروف السوسيو-تاريخية لمقاومة الأمير عبد القادر: الخلفيات والمرجعيات**، ضمن مؤلف جماعي، **تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر**، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكرية في الجزائر، دار القدس العربي، ط١، ص٣٥.

(٧) مالك بن نبي، المرجع السابق، ص١٩.

(٨) إسماعيل العربي، **المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٢، ص٢٧.

(٩) عمار يزلي، المرجع السابق، ص٤٠.

(١٠) طيبي محمد، **الجزائر عشية الغزو الاحتلالي**، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٩، الجزائر، ص١٦٢.

(١١) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص١٩.

(١٢) يُنظر حول هذه النقطة: مولود قاسم نايت بلقاسم، "**الأمير عبد القادر والخلافة العثمانية**"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، السنة الثالثة عشر، عدد(٧٥)، ماي –جوان١٩٨٣، ص٩-٥٠.

(١٣) عبد الله شريط، المرجع السابق، ص٩٨.

(١٤) أديب حرب، **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري**، دار الرائد للكتاب، ج١، ط٢،٢٠٠٤، ص٨٩.

(١٥) الطيبي محمد، المرجع السابق، ص١٦٨.

(١٦) محمد مدان، **المرجعية السوسيو-تاريخية للسلطة السياسية في الجزائر**، مطبعة ابن خلدون، تلمسان،٢٠١٠، ص٥٣.

(١٧) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مرجع سابق، ص٢٠.

(١٨) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط٣،١٩٨٦، ص١٨.

(١٩) محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، ج١، ط٢، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٦٧، ص157-154.

(٢٠) نص البيعة حرره مجلس العلماء في (٠٣ رجب ١٢٤٨م).

(٢١) **سورة الفتح**، الآية رقم (١٠).

(٢٢) تشرشل هنري شارل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، ص٥٨.

(٢٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٢٤) المجرع نفسه، ص٦١.

(٢٥) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٩٢، ص268.

(٢٦) محمد بن الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ج١، ص٦٥.

(٢٧) عبد الله شريط، المرجع السابق، ص١٠٢.

(٢٨) ناصر الدين سعيدوني، **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للأبداع الشعري، ٢٠٠١، ص٢٠٣.

(٢٩) هنري تشرشل، المرجع السابق، ص٥٩.

(٣٠) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص١٣٠.

(٣١) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، القسم الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٢،١٩٨١ ص١٣٠.

(٣٢) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، المرجع السابق، ص٢٧٨.

(٣٣) هنري تشرشل، المرجع السابق، ص63.

(٣٤) المرجع نفسه، ص٢١٦.

(٣٥) أبو القاسم، **الحركة الوطنية**، ص٢٧٤.

(٣٦) طيبي محمد، المرجع السابق، ص١٣.

(٣٧) هنري تشرشل، المرجع السابق، ص١٥.

(٣٨) المرجع نفسه، ص٢١.

(٣٩) المرجع نفسه، ص٢٣.

(٤٠) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، المرجع السابق، ص٢٧٤.

(٤١) حامد الجار، "**الجهاد وأبعاده الروحية والسياسية والاجتماعية في حياة الفرد والمجتمع**"، في ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي العاشر، ١٩٧٦، مج ٣، دار البعث (١٩٨٠/١٤٠٠)، ص٢٧٨.

(٤٢)أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، مرجع سابق، ص١٢٩.

(43) MIMOUNE.R L'homme dans la vie et loeuvre de lemire abdelkader dans lannales de luniversite dalger n4, P.53.

(٤٤) سورة الحج، الآية (٣٩-٤٠).

(٤٥) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ص٢٧١.

(٤٦) أديب حرب، المرجع السابق، ص٣٧٣.

(٤٧) هنري تشرشل، المرجع السابق، ص٦٢.

(٤٨) المرجع نفسه، ص٣٤.

(٤٩) عمار يزلي، **الظروف السوسيو- تاريخية لمقاومة الأمير عبد القادر: الخلفيات والمرجعيات**، ص٤٩.

(٥٠) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، المرجع السابق، ص268.

(٥١) محفوظ قداش، "**جيش الأمير عبد القادر**"، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص ٥٤-٥٦.

(٥٢) محمد الطيب العلوي، **مظاهر المقاومة الجزائرية من عام ١٨٣٠ إلى نوفمبر ١٩٥٤**. ط١، دار البحث، ١٩٨٥. ص٣٨.

(٥٣) عامر البغدادي، **دولة الأمير عبد القادر الجزائري** (١٨٣٢-١٨٤٨): **دراسة في نظام الحكم في الإسلام**، رسالة ماجستير كلية الشريعة، جامعة أم درمان، السودان، ١٩٨٧، ص٦٥.

(٥٤) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ص٢٩٦.